اللسانيات والفكر الجدلي لدى المتكلم

الدكتور محمد عبد الجبار العزاوي

المقدمة:

في النفس اشياء.. اشياء تحتاج الى البحث عن ماهية القناعة عند الآخر، والآخر لاه، في حله وترحاله، يريد إن يختصر الزمن، واختصاره الهام، الهمته لغته ولسانه المعبر عنه مكامن النفس، يبحث الانسان عن كلمة تدخل القلب من دون استئذان، يبحث عن مختصرات لا مطولات، يقرب المسافات ولا شيء اقرب للوصول الى قلب الحدث غير تقارب المسافات. وحل المشكلات في هذا الخضم من الصراعات الدائرة في فلك الحياة.

انت بعيد عني. ولكني قريب منك في التعبير الملهم لأنذي فهمت لغة التوصيل، وحوارية الاقناع، استوعبت نظريات تشومسكي، واتجاهات بلومفيد، وثوابت فيرث، وخلق دي سوسير و... و ... الكل ينتظر مني ان اقول عن ما كنت اقوله ماضيا، وما اقوله حاضرا، وما سأقوله مستقبلا، وقولي متزامن مع نشوء نظريات الارتقاء باللغة الى مصاف العقل والفكر النير المتفتح، ولكن الحاضر والماضي صنوان لا يفترقان، لا بد من الماضي لبناء الحاضر، والمرء بأصغريه قلبه ولسانه.

لقد ترك دي سوسير أتباعه ومريديه، يرثونه في الاسس التي بنى عليها اتجاهاته في الالسنية، ورثوه المعتقد والفكر وطوروه واضافوا فوق ما يضيف العقل، انار لهم جادة الصواب... اما نحن، فقمنا بارتشاف الضرب من هذا المعين الذي لا ينضب. اعجبنا ايما اعجاب، ودهشنا ايما دهشة، حين ازالوا الدهامة المترسخة في افكار لا تعرف طريق الصواب، فلنا في هذا البحث المتواضع إن نشد الازر، وننحو منحى فكريا خالصا، بعيدا عن كلاسيكيات الدرس اللغوي المتعب والمتعِب في الوقت نفسه. نحن -اللغويين – علينا فريضة النهوض

باجيالنا، ننير لهم الدرب بعد ظلمة حالكة من الجهل، ان نبحث عن مكان لهم تحت الشمس، نوضح ما هو شائن وما هو ساه، نقول لهم...مثلا..

استوعب احمد الدرس الحديث.

ونقول لهم: احمد استوعب الدرس الحديث.

ومرة اخرى نقول: استوعب الدرس الحديث احمد.

ورابعة: الدرس الحديث استوعب احمد.

فنجد إن الاقوال مختلفة، ولكن ما المشكل في التغير الذي حصل في الجمل؟

لا مشكل غير تغير وظيفتها المؤثرة في السياق، اذن: علينا إن نبحث عن الجملة الأوفق ونحسن الاختيار على وفق دينامية الاتصال، فالفكرة واحدة والبنية العميقة توضح استيعاب (احمد) للدرس الحديث، اما متغيرات الجمل فهي وظائف وعلى الملتقي إن يختار، ويستعمل بما يوحي له انه قد فهم، وفهم المقصود.

تلك دراسة بسيطة، ومبحث متواضع اسسته على مبحثين يرتكزان على حقيقة الفكر اللساني، فأما الاول فيشمل ثلاثة فروع:

١- اللسانيات ...كيف نفهمها.

٢- ما اللغة؟

٣- علماء ومفكرون وحضوة التأثير اللساني واللغوي.

واما الثاني فكان على فرعين:

الاول: من المدارس المهمة في التأثير الكلامي.

والثاني: تهيئة الساحة العقلية لتقبل التجديد في اللغة.

اتمنى إن اكون وفقت في بحثي المتواضع مراضاة لله. وخدمة للعلم والعلماء..

ومن الله العون والتوفيق.

المبحث الأول

١ ـ اللسانيات كيف نفهمها؟

يعرف علماء النفس اللغة (من وجهة نظرهم السيكولوجية)، بأنها مجموعة اشارات تصلح للتعبير عن حالات الشعور، أي عن حالات الانسان الفكرية والعاطفية والإرادية. ومعنى ذلك إن اللغة –اية لغة – اشارات يطلب الانسان بوساطتها ما يريد، ويعبر بها عن افكاره ويفصح بوساطتها عن انفعالاته.

إن تفوق الانسان عن الحيوان هو القدرة على التعبير عن الافكار بالكلام، وان نمو الذكاء رهين بنحو اللغة عند الطفل، وانه بالتالي يشترط النمو اللغوي من اجل النمو العقلي.

فهناك في عقل الانسان ذاكرة ابداعية. وان صنع الفعل الابداعي، لا بد إن يكون مصحوبا بكتلة من الشحنات الايحائية المؤثرة في مستويات النص، والتركيب واللفظة، والصوت.. والالفاظ تنتج فعلا، وسلسلة صوتية، ولواحق خطية، وان هذه الالفاظ لا تأتي من مخزون (ما) يحتفظ في الذاكرة كما هو، وان هذه الألفاظ عددها لا متناه، فالاحتفاظ بها يقتضي ذاكرة لا متناهية، وانها تصاغ بحسب الحاجة عن طريق اداة تسمح بتوليدها (ومقابل ذلك لفهمها) وهذه الاداة المتكونة من دلائل وقواعد توليفية هو (اللسان).[١]

لقد قابل (دي سوسير) (دروس في اللسانيات العامة ١٩١٦) بين اللسان والكلام (فاللسان) نظام مسجل في الذاكرة المشتركة.

يمكن من انتاج الفاظ لا متناهية وفهمها (والكلام) مجموع الالفاظ التي انجزت فعلا، واضيف بعد دي سوسير، (وبخاصة من عند اللساني الفرنسي غوستاف غيوم) طرف ثالث هو (خطاب)، والخطاب هو المجموع اللامتناهي للالفاظ الممكنة التي يمثل الحديث فرعا منجزا منها، فيكون اللسان اذن: النظام الكفيل بتوليد الخطاب.[٢]

٢ـ ما اللغة ؟

يمكن القول: إن الاشارات عناصر مكونة للغة، ولكي تكون هناك لغة يجب إن يكون الشيء المعني حالة شعورية كانفعال او فكرة او رغبة، فالدخان - مثلا – لايصبح لغة الا اذا قصدنا ذلك، أي اذا اوجدناه نحن لنجعل منه علامة وحينئذ يصبح دليلا على ارادة ومن ثم لغة حقيقية.

كذلك يجب ان تحصل الاشارة عن قصد وتصميم لكي يكون لها معنى وتصبح لغة، فصراخ الطفل الرضيع – مثلا – حين لا يكون الا مجرد رد فعل سببه الجوع ليس لغة بالمعنى الصحيح، وان كان اشارة تدل على الجوع، بيد إن هذه الصرخة نفسها تصبح لغة حيث يعيدها الطفل ليدعو امه، أي حين يأمر امه بالحضور.

وهناك لغة الكلام التي تتكون من اصوات يحدثها الجهاز الصوتي للانسان، وان اللغة الكلامية كائن حي، فالكلمة تولد وتتطور وتتغير وتموت، وللغة الكلام قدرة على التعبير لا مثيل لها، انها لا تثير الافكار فحسب بل تحتوي على عناصر تعبيرية اربعة لا بد من الاشارة اليها هي:

١. تدفع الى العمل بالرغم من تذرع الانسان بكياسة لاخفاء ذلك.
٢. توجه الانتباه الى الصفات العامة، انسان، شجرة، حق، عدل، جمال، الخ.
٣. تثير حالات نفسية وذهنية معقدة.
٤. تملك عنصرا موسيقيا مهما جدا يجعل الكلمة دعابة حبيبة –مثلا – او اهانة بالغة.

وينبغي أن نذكر هنا، إن اللغة وساطة للاتصال اولا ومساعد للتفكير ثانيا، ويتجلى هذا الامر اذا فكرنا في المسائل الثلاث الاتية:

١. عدم امكان فصل اللغة عن الفكر.
٢. توضيح اللغة للفكر.
٣. الصلات الناشئة عن اللغة.

وبناء على ما تقدم نعود لنبين، أن حركة التركيب داخل منطق التفكير يجب إن تحتوي الثبوت والتجلي في مركز الذاكرة الابداعية، ولا بد-هنا- من الافادة من معطيات اللسانيات الحديثة وتقنياتها الاسلوبية، والمؤسسات المعرفية الاخرى فضلا عن العامل الزمني الذي تظهر اهميته بشكل بالغ، بصفته عنصرا فاعلا داخل النص اللساني، وساحة لدينامية حركة المنشئ.

وقد تتعطل حركة الزمن في مناطق على سطوح الخطابات النصفية – احيانا – لأن هناك الزمن الوجداني الخالص والثابت. ولا ننسى إن اللغة تتحد في جزء دقيق من دلالتها، وتختلف في جزء اخر منه، وهذا بالذات هو الذي يضفي على اللغة تلك الدقة العلمية، وهذا ما يجعلنا إن نقول: إن التكنولوجيا تبدأ اول ما تبدأ باللغة.

٤-علماء ومفكرون وحضوة التأثير اللساني واللغوي

فرديناند دي سوسير Ferdinand De Saussure

اتفق الباحثون على إن ظهور "فرديناند دي سوسير" كان بداية لعصر جديد، ونهج جديد في الدرس اللغوي. لقد دعا هذا العالم الى إن الدرس اللغوي ينبغي إن يتجاوز الناحية التاريخية والمقارنة والاهتمام بادلية اللغة واصلها وكيف نشأت الى إن ندرس اللغة في واقعها الاجتماعي، فندرس خواصها والفاظها ومعانيها واصواتها في الحقبة التي يتعامل بها.(٣)

يبدأ سوسير بدراسة الظاهرة العامة للغة – بموجب البعدين الجوهرين اللذين نعرضهما – البعد اللغوي، والبعد الكلامي، لقد اثبت إن التمييز الجدلي الذي رسمه بين هذين البعدين ذو اهمية قصوى لتطور اللسانيات بشكل عام وللبنيوية بشكل خاص.(٤)

فالتمييز بين النظام اللغوي والحدث الكلامي تمييز بين النظام اللغوي المجرد الذي نسميه (اللغة)، والتفوهات الفردية التي يطلقها الناطقون باللغة في مواقف حياتهم العملية التي نسميها الكلام.(٥)

وهنا نجد إن دي سوسير قد ميز بين الملكة اللغوية واللغة: إن اللغة ما هي سوى جزء معين منها – من الملكة اللغوية – انها نتاج اجتماعي لملكة اللغة، وهي مجموعة من الاصطلاحات الضرورية التي يتبناها الجسم الاجتماعي، واذا اخذنا الملكة اللغوية بكلتيها، نراها متعددة الاشكال، وخليطا تندرج في مجالات عدة: فيزيائية وفسيولوجية ونفسانية في الوقت نفسه، وتنتمي الى المجال الفردي والمجال الاجتماعي، وهي لا تقبل بان تصنف في اية فئة من فئة القضايا الانسانية، وذلك لاننا لا نعرف كيف تبرز وحدتها.(٦)

اما اللغة فعلى العكس من ذلك، فهي كل بذاته ومبدأ تصنيف، حيث تفرد لها المركز الاول بين قضايا الملكة اللغوية ندخل ترتيبا طبيعيا في مجموع لا يرتضي أي تصنيف اخر.(٧)

وقد لقي هذا التصنيف اعتراضا من بعض اللغويين، وحتى يجد دي سوسير من ضمن الملكة اللغوية، المنطقة التي تطابق اللغة برهن ذلك بوضع انفسنا امام الفعل الفردي الذي يتيح اعادة تكوين حلقة الكلام[٨]. اذ يفترض هذا الفعل وجود شخصين في الاقل. لنفرض أن هناك شخصين (أ) و (ب) يتحدثان...

إن نقطة انطلاق الحلقة هي في دماغ احد الشخصين، لنقل انها في دماغ (أ)، ثم تنتشر التموجات الصوتية من فم (أ) الى اذن (ب)، وهذه عملية فيزيائية صرفة، وبعدها تمتد الحلقة في (ب) في ترتيب معكوس: من الاذن الى الدماغ، نقل فيزيولوجي للصورة السمعية، وفي الدماغ، ترابط نفساني لهذه الصورة بالمفهوم المناسب اما اذا تكلم (ب) بدوره، فان هذا الفعل الجديد ينحو من دماغه الى دماغ (أ) المنحى السابق نفسه، ويمر بالمراحل المتتابعة نفسها التي تمثلها في المخطط الاتي[٩]:

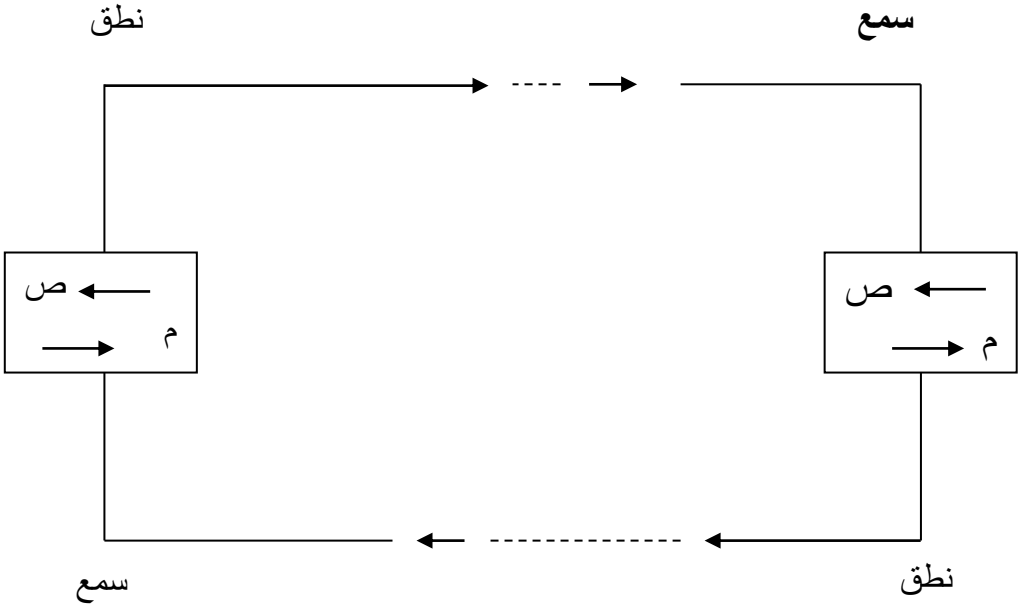

وتجدر الاشارة الى إن دي سوسير لم يستعمل ابدا كلمة (بنية)، فالمفهوم الاساسي في نظره هو مفهوم (التنظيم)[١٠].

ونخلص بعد ذلك الى إن سوسير يعد مؤسسة المدرسة الاجتماعية في الدراسات اللغوية اذ يعد اللغة ظاهرة اجتماعية. ثم يصطنع ثالوثا يتضمن تصورات ثلاثة متكاملة هي:

اللغة – واللغة المعينة – والكلام (اظهار الفرد للغة) الا انه فرق بين القيمة اللغوية والمقصود من الكلمة، فضلا عن انه ميز بين الدراسة الوصفية للغة والدراسة التاريخية لها.

نعوم تشومسكي Noam Chomsky

سطع نجم المدرسة الامريكية بمجيء (تشومسكي) بدراسته الموسومة بـ (البنى التركيبية) سنة ١٩٥٧، اذ رد على المنهج التوزيعي، وطرح فيه الفكرة الاولى وهي (الفطرة اللغوية) التي لم تكن موجودة عند التوزيعيين، متأثرا بعالمين هما:

١. ديكارت، صاحب فكرة (إن الانسان له قدرة وعقل واهم خصائص العقل انتاج اللغة).
٢. هامبولتد: الذي يقول (إن اللغة نتاج العقل وهي عبارة عن عمليات ذهنية تحدث في الذهن يظهر أثرها على السطح الخارجي).[١١]

لقد كشفت نواحي متنوعة منها الابداع اللغوي والنحوي للطفل، والسرعة التي تستطيع تعلم توصيل المعاني المتطورة، وعالمية اللغة الفعلية ضمن الاجناس البشرية كلها كشفت تشوماسكي، إن تطور اللغة لايمكن إن يكون معتمدا على التقلبات الفجة للتعزيز الابوي.

كان كتاب (السلوك اللفظي) لـ (سكنر – ١٩٥٧) قد نال حضوة كبيرة وله صفة عجيبة هي انه يقرأ دائما بصورة استعادية في ضوء ما سمي بـ (ما بعد تشومسكي المدمر). كان افتراض (سكنر) العام هو: إن اللغة هي شيء يجب إن يتعلمه الطفل من خلال التجربة، وان هذا التعلم يحصل كليا من خلال التطبيع الاجرائي او الاشتراط الاجرائي (Operant – Conditioning) اما تشومسكي فقد طرح نقده على قياس الخلف:

(هو قياس اساسه البرهنة على صحة المطلوب بابطال نقيضه او على فساد المطلوب باثبات نقيضه) معطيا الانطباع بان (سكنر) يزعم إن الاطفال

يستطيعون تعلم القواعد النحوية والكلمات والجمل فقط من خلال التقليد الفج لالفاظ والديهم مع المكافات اللاحقة.(١٢)

وكما بين (تشومسكي) فان من الواضح إن هذه لم تكن الحالة الفعلية، فالاطفال والكبار على حد سواء ينتجون تعابير لم يستخدمها احد من قبل، وقد لا تكون موجودة في اللغة.

إن فهم (تشومسكي) يختلف عن فهم (سكنر) في جوانب تتجاوز الاليات المقترحة، لتفسير حيازة اللغة.. انهما يختلفان في وجهات نظرهم بشأن ماهية اللغة، والعلاقة بين اللغة والانظمة الفعلية الاخرى لم تؤثر البيئة في تطور اللغة.

يقول (تشومسكي): ((انا افترض إن النحو الممثل في الدماغ هو "شي حقيقي" و في الواقع ينبغي تحديد لغة أي شخص في ضوء هذا النحو)).(١٣)

لقد كان هدف كتاب (تشومسكي) "البنى التركيبية" هو تحليل مقدرة المتكلم على انتاج جمل من لغته الخاصة، لم يكن قد سمعها من قبل، فوضع لذلك قواعد اسماها في نظريته هذه (قواعد اللغات).

تلتقي كثير من اللغات – او تختلف – في البنى والتراكيب، ولكن النظرية التحويلية، تحاول إن تجعل من الجمل الاساسية في اللغات اساسا للتوليد من عدد محدد من القواعد عداً غير متناه من الجمل، ويعتمد ذلك كله على المتكلم المنتج اذا انه سينتج عددا غير متناه من الجمل يمكن من خلالها الوصول الى انواع من القواعد، يحددها تشومسكي بانواع ثلاثة هي:(١٤)

١. قواعد ذات حالات محدودة.
٢. قواعد ركنية.
٣. قواعد تحويلية.

وتتفق الاتجاهات جميعا التي رسمها (تشومسكي) في نظريته وتحدد غالبا في:(١٥)

١. ابراز الفرق بين نظريته والالسنية البنائية البلومفيليدية.
٢. فشل المفاهيم التي يرتكز عليها المذهب السلوكي كالحافز والاستجابة للحافز وتقويته.
٣. التمييز بين الاداء الكلامي والكفاية اللغوية التي تعني معرفة المتكلم الضمنية بقواعد لغته.

٤. ايجاد مصطلحين في تكوين الجملة، مصطلح البنية العميقة وهو المضمون، والبنية السطحية – او الخارجية او الفوقية كما يسميها الاخرون – وهو الكلام المنطوق.
٥. التمييز بين اصولية الجملة، وتفهم الجملة.
٦. اقتراب نظريته من المناهج العقلية الفلسفية ولا سيما مفاهيم (الكفاية اللغوية) و (انتاج عدد غير متناه من الجمل) و(اكتساب الطفل للغة) متفقا مع ديكارت وهمبولت العقلانيين كما ذكر سابقا.

لقد تأثر (تشومسكي) باراء (دي سوسير) وافاد منها، كما افاد من غيره أي مما كان بعده من اختصاص المدرسة الامريكية. يرى (تشومسكي) إن في طوق الانسان إن يصنع جملا وتراكيب لا حصر لها في سلوكه مع غيره. وان هذه القوالب الكلامية في تجدد وفي ظروف اخرى جديدة تختلف عن غيرها في ظروف اخرى[١٦]. إن مقدرة الفرد اللغوية تتأتى من مجموعة القواعد التي يتم بها الاعراب عن المراد، وهذه المقدرة اللغوية لهذه القواعد هي مهمة الباحث اللغوي التي يدعوها بـ (القواعد التحويلية).[١٧]

المبحث الثاني

١.من المدارس المهمة في التاثير الكلامي

مدرسة براغ

مركز مهم للدراسات اللغوية، عقب وفاة دي سوسير ومدرسة براغ او (المدرسة الوظيفية)، تتمثل في اعمال نيكولاي تروبتسكوي (Nilkolai Trubetzkoy) ومن اعلامها –ايضا- عالم اللسانيات وليم ماثيسيوس (Mathesius) الذي القى محاضرة مهمة حول (خصيصة اللغة) وقد عقد اصحاب هذه المدرسة لقاءات عدة، وقدموا عام ١٩٢٨، ورقة عمل مدرستهم الى المؤتمر الاول لعلماء اللسانيات في هولندا تحت عنوان المؤتمر الاول لعلماء اللسانيات في هولندا تحت عنوان (الاعمال الاساسية لحلقة براغ اللغوية).

لقد اكد لغويو براغ إن ما تختص به الحلقة هو علم لغة وظيفي بنيوي اوضح تعاون اعضائها التشيك والروس..

اما (الجناح الروسي) فقد ادخل وبقوة الجانب (البنيوي) و(الجناح التشيكي) – بالتعاون مع علماء نفس الجشتالت- الجانب الوظيفي.[١٨]

طبقت هذه المدرسة نظرية دي سوسير في الفونيم، حيث يعني الصوت الكلامي بوصفه واقعية صوتية، وقد سعوا الى تطويره بصفته واسطة العقد في الفونولوجيا كعلم لغوي تحليلي ينظر الى اللغة من جانبها الوظيفي.[١٩]

فأصوات الكلام في نظر هذه المدرسة، تنتمي الى الكلام (Parole) اما الفونيم فينتمي الى اللغة (Langue) اما اللغة عند اعضاء هذه المدرسة فهو نظام (System) من العلامات (Signs)[٢٠]، إن اهم عمل يرتبط بمنهج هذه المدرسة واتجاهها العام هو كتاب (اصول الفنولوجيا) لمؤلفه نيكولاي تروبتسكوي. كذلك ميزت هذه المدرسة بين (الفونولوجيا) و بين (الفوناتيك) حين صار تحليل الوظائف الفونولوجية الى وحدات فونولوجية، وهي ثلاث[٢١]:

١.الوظيفة الكمية (كمية الوحدات).

٢. الوظيفة التحديدية (حدود الوحدات).

٣. الوظيفة التميزية (التمايز الدلالي).

لقد كانت جهود اللساني (رومان جاكبسون) تلميذ (تروبتسكوي الاثر الكبير في توجيه البحث اللساني.[٢٢] اما بخصوص الاستعمال الادبي للغة قد

استثمر لسانيو مدرسة براغ، التمييز بين الوظيفتين المعرفية والتعبيرية، للوصول الى المبدأ القائل: إن اللغة ستكون ذات طبيعة شعرية او جمالية عندما يهيمن جانبها التعبيري، أي عندما تنحرف اللغة الى الحد الاقصى عن الاستعمال الاعتيادي بوساطة وسائل تضع العملية التعبيرية في المقدمة.(٢٣)

وبعبارة اخرى يمكن القول بوجود وظيفة سادسة للغة. هي الوظيف الشعرية او الجمالية، وتكشف هذه الوظيفة عن نفسها بشكل التفوه نفسه، وليس بمعنى او مضمون كلماتها المنفصلة فقط.(٢٤)

لقد تأثر رواد هذه المدرسة – كما بينا – بأراء دي سوسير وبرأيه المشهور في التمييز بين ما سماه (الكلام المنطوق بالفعل الصادر من المتكلم الفرد في الموقف المعين، وبين ما سماه اللغة المعينة) واللغة المعينة في رأيه لا تنطق ولا يتكلمها احد، وانما يتكلم الكلام طبقا لقواعدها، وهذه القواعد امور عقلية مخزونة في ذهن الجماعة اللغوية المعينة.(٢٥)

لقد سار في هذا الاتجاه، الفصل العام بين الفوناتيك والفنولوجيا كل الذين تبعوا دي سوسير، من هؤلاء (اولمان) صاحب البحوث المشهورة في علم الدلالة، لقد صرح أكثر من مرة بان الفوناتيك هو علم اصوات الكلام، وان الفنولوجيا هو علم اصوات اللغة، أي الفونيمات والاول وهو المختص بدراسة الاصوات من جانبها العضوي ليس جزءا من علم اللغة على حين تنتهي الفنولوجيا الى هذا العلم.(٢٦)

ويبين د. رشيد العبيدي بان مدرسة براغ بزعمائها الثلاثة جاكبسون وكراتشوفسكي وتروبتسكوي، اقامت بحثها للغة على اساس إن الدراسة تقوم على اساسين هما:

١. المستوى الصوتي: دراسة الصوت من حيث طبيعته.
٢. المستوى الوظيفي: دراسة الحرفية أي الاهتمام بوظيفة الصوت.(٢٧)

مدرسة كوبنهاكن

وتسمى مدرسة (وحدات المعنى الصغرى)، وافضل ما تمثلها اعمال (لويس هلمسليف – Louis Hemslev-) الذي اكد الطبيعة الشكلية لكل لغة، وكان الاكثر رسوخا في ميدان البحث العلمي المعمق- وقد اشتهر بنظريته الرياضية (الجلوسيمائية – Gloomatcs) وبدلالتها القريبة (التحليل شبه الرياضي للغة).[٢٨]

والجلو سيمائية: نظرية لسانية بنائية تجريدية منطقية، تصف اللغة بطريقة رياضية، وتسيرها عبر منهجية تستند الى الفكر الاستنباطي القائم على المنطق الرياضي الدقيق.[٢٩]

وبمرور الوقت صارت هذه النظرية اكثر بعدا عن إن تكون نظرية للفونولوجيا فقط.[٣٠]

تقوم هذه النظرية كما ينعتها -روبنز-، على الافكار الاساسية للغة عند سوسير، اذ تؤكد انها شكل او صيغة ، ليست جوهراً او مادة في مستوى المعنى (Content Plane) الدلالة والقواعد ومستوى التعبير (Expression Plane) واللغة في محيط هذه النظرية شكل ونسق من العلاقات اكثر من كونه مادة الى جانب كونها نظرية تأخذ باللغة نحو جانب التجريد والمنطق وتبتعد عن سماتها الجمالية باعتمادها اللون الرياضي، فانها طرحت مفاهيم جديدة في تقسم الجزئيات النحوية، وقد بقيت الى الان بعيدة عن ميدان التطبيق الفعلي في مسرح اللغات عموما.[٣١]

لقد عنيت مدرسة (كوبنهاكن) بطبيعة العلامة اللغوية، فجعلت طريقها الى فهم هذه العلامة تفكيرا مجردا قريب الشبه من التفكير المنطقي اللغوي.[٣٢]

يقول (هيلمسليوف) في معرض الكلام على هدف نظرية اللغة ((لا يكفي إن يكون بمقدور النظرية الالسنية إن ضيف كل النصوص الممكنة العائدة الى لغة محددة وان تتكهن بها، وانما ايضا إن يكون بمقدروها على اساس المعرفة باللغة القيام بالشيء نفسه بالنسبة الى كل اللغات.[٣٣]

والصيغة بدلالة هذه النظرية، هي كمية العلاقات المتبادلة بين العناصر التي تقود الى المستوى المنطوق صوب النهاية المنطقية مع الاخذ بنظر الاعتبار للمعايير الوجودية فوق اللغوية، اذ إن تحليل المعنى يجب إن يكون مستقلا عن هذه

المعايير، كذلك الامر بالنسبة لتحليل (الفنولوجيا)، اذ يجب إن يكون – هو الاخر- مستقلا عن المعايير الصوتية (فوق اللغوية).[٣٤]

ويمكن إن يلاحظ بشكل هامشي إن (هيلمسليف) قد كان يذهب مذهب هذه النظرية العلمية لحلقة فينا ايضا حين نشات في الاربعينات داخل الاطار المنهجي نفسه للوصفية اللغوية.[٣٥]

اما عن مركب (تعبير –مضمون- شكل –مادة) فان منطق افكار (هيلمسليف) حول هذا المركب هو معالجة دي سوسير للعلامة اللغوية على انها وحدة من المشير (الدال Signifiant) والمشار اليه (المدلول Signifie) وعند (هيلمسليف) التعبير والمضمون، وفرق كذلك مثل دي سوسير بين الشكل والمادة في اللغة.[٣٦]

ويعتمد ايضا على دي سوسير في فرضيته، وهي انه لا يجوز إن يكون موضوع علم اللغة الا الشكل ويكون ذلك (الشكل) على مستوى التعبير الفوينمات، وعلى مستوى المضمون وحدات بنية المعنى. اما المادة فهي المتلازم (المتعالق) غير اللغوي للشكل وتكون على مستوى التعبير كل الاصوات التي يمكن نطقها، وعلى مستوى المضمون كل التصورات الممكنة.[٣٧]

٢- تهيئة الساحة العقلية لتقبل التجديد في اللغة

نعلم جميعا – نحن المربين والباحثين – إن تفكيرنا في اللغة لا يخرج عن نطاق العاطفة، ومشكلتنا اللغوية خطرة، فانها تتناول اهم نواحي الحياة، نفكر، ونتكلم، ونغني، ونناغي اطفالنا ونهمس في اذان من نحبهم ونتفاهم مع من نرغب في التفاهم ونتخاصم مع من يروق لنا إن نتخاصم معهم بلغة محكية سلسة سيالة لا تعوق الفكر ولا تتطلب منا جهدا، ولكن عندما نقف مواقف رسمية، كأن يكون احدنا معلما او واعظا او محاميا اومحدثا في الاذاعة او محاضرا في قاعة الدرس، علينا إن نتلبس شخصية لغوية ثانية، علينا إن نتكلم لغة غريبة عن لغة الحياة، معربة معقدة، شديدة الاحكام في التركيب والتعبير، واللغة هي الفكر وطريق الانسان الى ادراك الكون والوجود، اذن اللغة عنصر من عناصر الحياة الانسانية.

والواقع – كما هو واضح – إن اللغة اكثر من مجموعة اصوات واكثر من إن تكون اداة للفكر او تعبيرا عن عاطفة، اللغة جزء من كياننا السيكولوجي

الروحي، وهي عملية فيزيائية اجتماعية سيكولوجية على غاية من التعقيد هنا، تتناول اربعة امور اساسية لتمام العملية المعقدة:

١.متكلم.
٢. مخاطب.
٣. اشياء او فكر يتكلم عليها.
٤. كلمات او مفردات (او اشارات ملامحية او يدوية).

وهي مجموعة فونيمات لها في الذهن صور معينة أي (معان)[٣٨].

ولايضاح هذه العملية المعقدة، نأخذ مثلا بسيطا لا يتبادر الى اذهاننا، انه على شيء من التعقيد، تصور رجلا يشمي في حقل مع ولده الصغير، يرى الولد شجرة تفاح عليها ثمر شهي، فيقول لوالده: (اقطف لي يا بابا تفاحة))، وقد ينزل الوالد عند طلب ولده، فيتناول تفاحة، وقد لا ينزل عند طلبه فيقول: ((لا التفاح ليس لنا، للتفاح اصحاب)).

فلنحلل هذه العملية الفيزيائية الاجتماعية السيكولوجية، تبدأ العملية بالصور المرئية، بعالم الاشياء المحيطة بنا، وهو العامل المؤثر، فيشتهي الولد التفاحة وتستحيل الصورة الذهنية الى صورة كلامية تعبيرية: ((اقطف لي يا بابا تفاحة)) كيف تحولت الصورة الذهنية الى صورة صوتية؟ اين كانت هذه الكلمات في دماغ الولد؟ ما العلاقة بين العامل المؤثر وبين المنطق؟ ماذا جرى؟ وكيف تم؟ ثم إن هذه الاصوات التي فاه بها الولد، انتقلت الى اذن الاب بوساطة تموجات في الهواء اولا ثم الى دماغه ثانيا، كيف؟ ماذا كان رد الفعل؟ كيف فهم المخاطب المخاطب؟ ماذا دار في دماغ الوالد عند سماع الاختبار؟

أي ما العلاقة بين الاصوات والمعنى؟ وكيف توصل الى حكم اولا في العقل ثم استحال الحكم الى اصوات تعبيرية فال له "نعم" او "لا" "التفاح ليس لنا"؟

هنا يتدخل السيكولوجي ويقول: "درس اللغة ليس من اختصاص علماء اللغة بل فرع من فروع علم السيكولوجيا، اللغة تصرف رمزي، ولا تفسر الا على اساس المؤثر ورد الفعل)).

هاتان العبارتان "اقطف لي تفاحة" و "التفاح ليس لنا، رد فعل سيكولوجي، ولا معنى لهاتين العبارتين الا اذا فهمنا الظروف المحيطة بالوضع الذي نطق

بهما، ثم إن السيكولوجيين انفسهم اذا سلما إن درس اللغة من اختصاصهم يختلفون كثيرا فيما بينهم في تفسير هذه الظواهر.

اذن: اللغة ليست ظاهرة بسيطة بل يتطلب فهمها فهما صحيحا اثارة اسئلة خطرة، وعلى كثير من التعقيد والغموض. اما نحن فيهمنا من الامر تقرير الواقع: اللغة ظاهرة اجتماعية سيكولوجية قبل إن تكون كلمات واصواتا وصرفا ونحوا. وهذا امر مهم بالنسبة لنا نحن -مستعملي اللغة – فاللغة عندنا اداة مركبة من اصوات فكلمات فتراكيب. بينما هي في الواقع الفكر نفسه (عند بعضهم) او طريق الفكر لادراك الوجود (عند بعضهم الاخر)، ولاكيان للغة بمعزل عن المجتمع، فان سويت ودي سوسير السويسري يقولان (ان لا كيان للغة الا في ذهن الفرد).

وبعد، فاللغة (ظاهرة سيكولوجية اجتماعية ثقافية مكتسبة لاصفة بيولوجية ملازمة للفرد، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الاختبار معاني مقررة في الذهن).

اقول مكتسبة لان اذا فصم الطفل عن المجتمع –مثلا – فانه لن يتكلم، بل ينطق باصوات غير لغوية كسائر الحيوانات وقد يكون لها معان، وكذلك اذا انشأ الطفل في محيط غير محيطه فانه يكتسب لغة القوم الذين يعايشهم.

واقول صفة بيولوجية، لان اعضاء النطق كالحلق، واللسان، والرئتين والحنجرة، وغيرها كثير، ليست للنطق اولا، أي إن وظيفتها الاولى هي غير النطق..

وبهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما إن تتفاهم وتتفاعل، وباللغة فقط صار الانسان انسانا، وباللغة فقط تطورت الحضارة، وتقدم العمران، وبلغ العقل الانساني ذروته فدرس اللغة درسا علميا فلسفيا درس في الانسان وفكره.

وبعد كل ذلك، ومن المؤسف حقا، إن نجد في بعض كلياتنا، إن توجيها غير سليم، بدأ يفرض على طلبتنا في الدرس اللغوي، لقد وجد من يقول: اننا نريد من هذا الدرس الاتجاه كذا، ونرفض إن نسمح لتيار غيره إن يكون.

هل ضمن من يدعو الى هذا إن التيار الذي يهواه، ويتشبث به، تشبث غارق بحبل مغلقا او على الاقل محاولا اغلاق الابواب في وجه غيره، هو التيار الامثل الصالح لنا، والذي سيكفينا-وحده- في البحث الاكاديمي اللساني في هذا

العالم ذي السرعة المهولة في كل المجالات، به نتقدم، وانطلاقا منه وحده نبتكر، وبفضله هو، دون غيره نسمو الى معالي هذا الفن بكل اتجاهاته؟

فلو قيد دي سوسير- مثلا ويمسليف وتشومسكي وغيرهم بقيد، ايا كان هذا القيد ولو املى عليهم التيار الذي يجب إن يتحركوا فيه، او النهج الذي يجب إن يجعلوه محراب قبلتهم لما اضافوا للعقل البشري هذه الاضافات العظيمة التي دفعت بهذا العلم الى الامام.

ومعلوم إنه لا يمكن إن نصل الى هذه الغاية ونحن محتفظون بشخصيتنا، ومتميزون بخصائص لغتنا الا اذا درسنا التيارات اللسانية الحديثة جميعها – دون استثناء – دراسة متأنية نأخذ منه ما يلائم خصائص لغتنا ومكوناتها، وندع – متاسفين او غير متأسفين – كل ما لا ينطلق بحال من الاحوال مع روح لساننا، مجددين طرائق الدرس والمعالجة والتحليل بفضل اتصالنا بالحديث واستيعابنا له استيعابا سليما ودقيقا.

والتجديد يفترض حتما وجود مادة قديمة، قائمة بنفسها تعالج بالات عصرية، فان جهلنا هذه المادة القديمة، ولم ندرسها الدراسة التي تستحقها استحال علينا التجديد...

الخاتمة

لو نستطيع إن نرى بوضوح ما يجري فينا في هذه اللحظات التي تسبق عملية الحديث، تلك اللحظات التي تمثل بشكل ما المرحلة الاعدادية او مرحلة الامتداد التي تعقبها هنيهة الانطلاق ثم مرحلة الدفع!.

لو إن عقلنا يستطيع أن يميز، ما يحدث داخله في تلك الاعماق بعيدة الغور لحصلنا على معلومات لسانية لا تقدر فوائدها بمقدار – وهي فوائد ما زلنا محرومين منها – ولانكشفت مسائل لم تحل بعد او مشكلات متضاربة للغاية.

إن هذا الشيء لو تحقق لكان امرا واضحا جدا وضوح العملية التي بها نمر من الفكر الى التعبير عنه بوساطة الكلام.

اننا لا نستطيع الوصول مباشرة في الاقل الى عمليات التفكير التي تسبق في داخلنا انطلاقة عملية الحديث التي لا تبدأ بالضبط مع بداية اصدار الكلام، الكلام الذي يقصد به طبعا التعبير عن فكر، ولكنه يبدأ مع عملية تحتية او اذا اردنا عملية فرعية، هي في واقع الامر، تذكر يوجهها الفكر الذي هو على اهبة التعبير التي يملكها الذهن دائماً.

إن عملية الحديث لتنحصر اذن في لغتنا المتطورة (واللغة العربية منها) التي اهتدت الى هذه العلمية مزيلة منها اشياء كثيرة جاعلة منها عملية خفيفة في مجملها، اقول: تنحصر في نقل الدلالات من اللغة الى الخطاب – يستلزم هذا النقل إن تكون الدلالات دالا في اللغة بمعنى إن يكون لها مقطع من الكلام مربوط بما تدل عليه أي بالمدلول الذي تكونه في الفكر.

المصادر والمراجع

١. البحث اللغوي: وصلته بالبنيوية في اللسانيات. د. رشيد العبيدي، مجلة اداب المستنصرية، العدد الثاني عشر، ١٩٨٥م.
٢. البنيوية وعلم الاشارة، ترنس هوكز، ترجمة مجيد الماشطة، ط١، ١٩٨٦، بغداد.
٣. العربية تواجه العصر/ د. ابراهيم السامرائي، سلسلة الموسوعة الصغيرة (١٠٥)، منشورات دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨٢.
٤. علم اللسانيات الحديثة، نظم التحكم وقواعد البيانات – د. عبد القادر عبد الجليل ط١/ ٢٠٠٢، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان.
٥. علم اللغة العام، الاصوات، د. كمال محمد بشر، دار المعارف بمصر ١٩٧٥.
٦. الالسنية (علم اللغة الحديث) قراءة تمهيدية – د.ميشال زكريا ط٢/ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٥.
٧. الاصول، دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، د. تمام حسان، عالم الكتب، ٢٠٠٤م.
٨. مباحث في علم اللغة واللسانيات، د. رشيد عبد الرحمن العبيدي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١/ ٢٠٠٢.
٩. مجلة الثقافة الاجنبية ، العدد (٢-١) ٢٠٠٧. الكلمات والمعاني من فرويد حتى تشومسكي- ستيفن فروش ترجمة: د. حسين سرمك حسن، اصدارات دار الشؤون الثقافية السنة الثامنة والعشرون.
١٠. محاضرات في الالسنية/ د. احمد جواد العتابي، محاضرات القاها على طلبة الدكتوراه ، ٢٠٠٨.
١١. مدخل لفهم اللسانيات، روبير مارتان، ترجمة: د. عبد القادر دار المهيري، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، ط١/ ٢٠٠٧، بيروت.
١٢. مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، تأليف: بريجيته، بارتشت، ترجمة: د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع (٢٠٠٤).
١٣. نحو عربية ميسرة. د. انيس فريحة – دار الثقافة، بيروت ١٩٥٥.

الهوامش

(١) مدخل لفهم اللسانيات، روبير مارتان، ٦٥.
(٢) المصدر نفسه، ٦٦.
(٣) العربية تواجه العصر، د. ابراهيم السامرائي، ١٠.
(٤) البنيوية، وعلم الاشارة، ترنس هوكز، ١٨.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) الالسنية، (علم اللغة الحديث)، د. ميشال زكريا، ٥٧.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) المصدر نفسه، ٦٨.
(٩) المصدر نفسه:
(١٠) الالسنية (علم اللغة الحديث): ٦٢.
(١١) محا ضرات لسانية، د. احمد جواد...
(١٢) مجلة الثقافة الاجنبية، العدد ١-٢.
(١٣) الكلمات والمعاني، ستيفن فروش: ٩.
(١٤) البحث اللغوي وصلته بالبنيوية في اللسانيات، العدد ١٢.
(١٥) المصدر نفسه.
(١٦) العربية تواجه العصر: ١٤.
(١٧) المصدر نفسه.
(١٨) مناهج اللغة : ١١٨.
(١٩) علم اللسانيات الحديثة/ ٢٣٦.
(٢٠) المصدر نفسه.
(٢١) علم اللسانيات الحديثة ، ٢٣٧.
(٢٢) المصدر نفسه، ٢٣٧.
(٢٣) البنيوية وعلم الاشارة / ترنس هوكز/ ٦٩.

(٢٤) المصدر نفسه، ٧٠.
(٢٥) علم اللغة العام/ الاصوات: ٣٥.
(٢٦) علم اللغة العام/ الاصوات ، ٣٦.
(٢٧) مباحث في علم اللغة، اللسانيات، ٢٣٦.
(٢٨) علم اللسانيات الحديثة: ٢٣١.
(٢٩) المصدر نفسه: ٢٣٢.
(٣٠) مناهج علم اللغة: ١٦٧.
(٣١) مناهج علم اللغة: ١٦٧.
(٣٢) الاصول : تمام حسان: ٢٣٩.
(٣٣) الالسنية (علم اللغة الحديث) ميشيال زكريا : ٢٢٢.
(٣٤) علم اللسانيات – الحديثة، ٢٣٢.
(٣٥) مناهج علم اللغة: ١٧٤.
(٣٦) المصدر نفسه.
(٣٧) المصدر نفسه، ١٧٧.
(٣٨) نحو عربية ميسرة: ٣٦.